البر هو الإيمان والعمل الصالح والخلق الحسن



د. محمد بن لطفي الصباغ

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 19/6/2012 ميلادي - 29/7/1433 هجري

البر هو الإيمان والعمل الصالح والخلق الحسن

وليس واحدًا منها فقط

حدثني صديقٌ أنَّه لقي رجلاً من المسلمين الطيِّبين يتخلَّف أحيانًا عن صلاة الجماعة ويُصلِّي في البيت بأهله وأولاده، فعاتَبَه على هذا التخلُّفِ، فقال: يا سيِّدي، أنا أحضر إلى المسجد وأصلِّي مع المسلمين كثيرًا، ولكن ممَّا يُزهِّدني في ذلك أحيانًا رؤيتي لناسٍ يُصلُّون في الصفتِ الأوَّل وفيهم مُرابون يَظلِمون الفُقَراء من الفلاحين وذوي الحاجات، وفيهم أغنياء أشحَّاء لا يؤدُّون حقَّ الله في أموالهم، ولا يَتفقَّدون المساكين من أقربائهم، وفيهم مَن يُسيئون إلى جِيرانهم، وفيهم مَن يعقُّون أمَّهاتهم وآباءهم.

فقلت لصديقي: إنَّ هذا الذي ذكَرَه هذا الرجلُ ليس عُذرًا يجعله يتخلَّف أحيانًا عن صلاة الجماعة؛ لأنَّ المسلم ينبغي أنْ يعمل ما أمَر به الله ورسولُه، ولا يضرُّ تقصيرُ العُصاة المقصِّرين.

فقال لي: لكنْ أليس أمثال هؤلاء العُصاة المجرمين دعاية سيِّئة للإسلام؟

قلت: صحيح ما تقول، والواجب علينا أنْ نُبيِّن أنَّ الإسلام بريءٌ من هذا الازدِواج في حَياة الناس.. إنَّ هؤلاء العُصاة لا يُمثِّلون الدِّين الحقَّ.

وأنا أقول: إنَّ نَفَرًا من هؤلاء دجَّالون يُريدون خِداع بعضِ الناس للاستيلاء على أموالهم.

إنَّ الصلاة أعظم ركنٍ في الإسلام بعد الشهادتين، إنها عِماد الدِّين، وينبغي أنْ تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 45].

ومن رحمة الله وفضله أنَّ الصلاة لا تُكلِّف المؤمن مالاً ولا جهدًا، إنها أقوال وأفعال مبدوءة بالتكبير مختومة بالتسليم، إنها فرضُ عينٍ على كلِّ مُكلَّف، وهي مريحةٌ لصاحبها، تُكسِبه ثقة الناس ورضا الله، إنْ هو أخلَصَ فيها لله، ولكنَّ الوقوف أمام شهوة المال وأمام شَهوة النساء أمرٌ لا يَقوَى عليه إلا الصادقون من المؤمنين، وكذا القيام بما أوجَبَ الله من الجهاد بالمال والنَّفس والإنفاق في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أمرٌ لا يقوى عليه إلا الصادقون من المؤمنين، قال الشاعر:

سَبِّحْ وَصَلِّ وَطُفْ بِمَكَّةَ زَائِرًا

سَبْعِينَ لا سَبْعًا فَلَسْتَ بِنَاسِكِ

جَهِلَ الدِّيَانَةَ مَنْ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ

أَطْمَاعُهُ لَمْ يُلْفَ بِالْمُتَمَاسِكِ[1]

وقال أيضًا:

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وَأَنْتَ حُرٌّ

بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ

يُحَرِّمُ فِيكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبْحًا

وَيَشْرَبُهَا عَلَى عَمَدٍ مَسَاءَ

إِذَا فَعَلَ الفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى

فَمِنْ جِهَتَيْنِ لا جِهَةٍ أَسَاءَ[2]

نعم؛ كثيرًا ما يُغَرُّ بأمثال هؤلاء الدَّجَّالين بعضُ الناس، ولنتذكَّر ذاك الرجل الواعظ الذي يكونُ في جهنَّم من المعذَّبين، يدور في النار كما يَدورُ الحمار في الرَّحى؛ عن أسامة بن زيد - رضِي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((يُؤتَى بالرجل يومَ القيامة فيُلْقَى في النار فتندَلِق أقتابُ بطنِه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمار في الرَّحَى، فيجتمع إليه أهلُ النار فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكنْ تأمُر بالمعروف وتَنهَى عن المنكر؟ فيقول: بلى؛ كنتُ آمُر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه))[3].

إنَّ شُعوبنا الإسلاميَّة يغلب عليها حُسنُ الظنِّ بالمتديِّن، ويثقُ جمهورُهم بالمصلِّي، فيُوافقون على مشاركته في الأمور الماليَّة، وكذا الأمر في الزَّواج والمصاهرة، ويعمد بعض الدَّجَّالين إلى هذا السلوك فيأتون مُبكِّرين إلى المسجد، ويحرِصون على الصفِّ الأوَّل، ويُبالِغون في إظهار الزُّهد، وتراهم يُحسِنون الحديثَ عن الإسلام والدِّفاع عنه، ويحسنون الكلام في الوعظ، حتى إذا وقَع في فخِّ دجلهم مسكينٌ، سلَخُوا جِلدَه، وأكلوا مالَه[4] - والعياذ بالله - ومن ذلك أنَّ شابًّا كان يؤمُّ الناس ويدَّعي أنَّه حافظٌ لكتاب الله، خطب فتاةً دَيِّنةً صَيِّنةً تحمل الماجستير، فرضيت به لدِينِه، ولكنَّها بعد العُرس لم تستَطِع البقاء معه إلا شُهورًا ثلاثة، رَأَتْ فيها الوَيْلَ والثُّبور، والبُعدَ عن الدِّين، والضَّرب وإساءة المعاملة التي لا تحمَّلها الجبال، فتركَتْه وعادَتْ إلى أهلها وهي حامل ولم يُعطِها شيئًا من حقِّها.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - يقول: ((إنَّ أوَّل الناس يُقضى يومَ القيامة عليه رجلٌ استُشهِد، فأُتِي به، فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدت، قال: كذبتَ، ولكنَّك قاتلت لأنْ يُقال: هو جريءٌ؛ فقد قِيل، ثم أمر به، فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي في النار.

ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القُرآن، فأُتِي به، فعرَّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمتُه، وقرأتُ فيكَ القُرآن، قال: كذبتَ، ولكنَّك تعلَّمت العلمَ ليُقال: عالِمٌ، وقرأتَ القُرآن ليُقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أمر به، فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاهُ من أصناف المال كله، فأُتي به، فعرَّفه نعمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أنْ يُنفَق فيها إلا أنفَقت فيها لك، قال: كذبت؛ ولكنَّك فعلت ليُقال: هو جوادٌ، فقد قيل، ثم أُمر به، فسحب على وجهه حتى أُلقِي في النار"[5].

فهذه أمورٌ ثلاثة، وهي: الجهاد والاستشهاد، وتعلُّم العلم وتعليمه وقِراءة القرآن، والإنفاق، لم تفدْ أصحابها؛ لأنهم لم يكونوا صادقين، وكانوا لا يعمَلون إلا من أجْل مَصالحهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177].

لقد ذكَر ربُّنا - سبحانه - أنَّ البرَّ لا يكون إلا بمجموع أمور، ولا يكون بواحدٍ منها فقط.. ليس البر في أنْ يُولِّي المرءُ وجهَه في الصلاة قِبَلَ المشرق والمغرب، ولكنَّ البرَّ يكونُ عندما تتحقَّق في المسلم أركانُ الإيمان: الإيمان بالله واليوم الآخِر والملائكة والكتب والرسل، وعندما تتحقَّق في المسلم الفضائلُ التي يقتضيها هذا الإيمانُ من الإنفاق على ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وتحرير الأرقَّاء، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وعندما تتحقَّق في المسلم الأخلاقُ الكريمةُ من الوفاء بالعهد والصبر في الفقر والمرض والحرب.

إنَّ البرَّ ليس في تلك الشَّعائر الظاهرة إذا تجرَّدت عن صِفات المؤمنين الصادقين، إنها في هذه الحالة لا تُحقِّق البر، ولا تنشئ الخير ولا التقوى.

قال العلامة سيد قطب: "إنما البرُّ تصوُّر وشعور، وأعمال وسلوك؛ تصوُّرٌ يُنشِئ أثره في ضمير الفرْد والجماعة، وعملٌ ينشئ أثره في حياة الفرد والجماعة، ولا يغني عن هذه الحقيقةِ العميقةِ توليةُ الوجوه قِبَلَ المشرق والمغرب.. سواء في التوجُّه إلى القبلة هذه أم تلك؛ أو في التسليم من الصلاة يمينًا وشمالاً، أو في سائر الحركات الظاهرة التي يُزاوِلها الناس في الشعائر".

وجاء في "تفسير ابن كثير": قال العوفي عن ابن عبَّاسٍ في هذه الآية: ليس البر أنْ تُصَلُّوا ولا تعمَلوا.

وقال ابن كثير: إنَّ مَن اتَّصف بهذه الآية، فقد دخَل في عُرَى الإسلام كلها، وأخَذ بمجامع الخير كلِّه.

إنَّ الذي يحسب أنَّه إذا صلَّى، ثم بعد ذلك لم يأتِ بشيء ممَّا أوجبه الله عليه، ولم يدَعْ شيئًا من المحرَّمات ممَّا تميلُ إليه النفس إلا أتاه - إنَّ الذي يحسب أنَّ ذلك يجعَلُه قد اتَّصف بالبر كان في ضَلال مبين.

إنَّ المستعمِرين الكفَرَة وعُمَلاءهم من الطَّواغيت الذين يحكُمون كثيرًا من بلاد المسلمين يقولون للشعوب المسلمة: صلُّوا ما شئتُم من الصلاة، واذكُروا ما شئتُم من الذِّكر، وارقُصوا في حلقاته ما شِئتُم من الرَّقص، ثم عليكم بعد هذا أنْ تأخُذوا الأنظمة الاقتصاديَّة والقانونيَّة والسياسيَّة والاجتماعيَّة التي تَسُود العالم المتمدِّن، وهذا هو مضمون الفكرة الآثمة؛ وهي فصل الدِّين عن الدولة، وهي مرفوضةٌ من وجهة النظَر الإسلاميَّة؛ يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: 208].

يأمُر الله تعالى في هذه الآية عبادَه المؤمنين به، المصدِّقين برسوله أنْ يأخُذوا بجميع عُرَى الإسلام، وأنْ يعمَلُوا بجميع أوامره ما استطاعُوا، وأنْ يترُكوا جميعَ زَواجِره، ونهاهُم عن اتِّباع خُطوات الشيطان العدوِّ المبين.

والحمد لله ربِّ العالمين.

---

[1] "أقوال مأثورة" 2/253.

[2] "أقوال مأثورة" 2/106.

[3] رواه البخاري برقم 3267، ومسلم برقم 2989.

[4] ذكرت في شرحي لحديث "ما ذئبان جائعان.." قصصًا من التاريخ، وأخرى من الواقع وقفت عليها بنفسي تظاهَر فيها ناسٌ دجَّالون بالتديُّن ووصلوا إلى مُبتَغاهم الخسيس في خِدمة الكافر المستعمر أو أَكْل أموال الناس بالباطل [انظر: شرح الحديث في كتابي "قضايا في الدين والحياة" صـ156-159].

[5] رواه مسلم برقم 1905 والنسائي.
